بلاد الأحقاف في شعر باكثير
ديوان (سحر عدن وفخر اليمن) أنموذجاً

د. عبده يحي صالح الدباني
جامعة عدن

المقدمة:

ديوان (سحر عدن وفخر اليمن) هو الديوان الشعري الثاني للأديب العربي الإسلامي الفذ علي أحمد باكثير وهو مجموعة قصائد ومقطوعات نظمها الشاعر باكثير- رحمه الله تعالى- في أثناء محطة حرجة ومهمة من محطات حياته الإبداعية ألا وهي المرحلة العدنية التي امتدت ما بقرب من العام الواحد فهي على قصرها كانت مرحلة مبكرة كان فيها الشاعر شابا يافعا في أول العشرينات من عمره وكان قد قدم إلى عدن من حضرموت وبعدها سافر إلى الحجاز ومن ثم إلى مصر إذ استقر به المقام حتى وفاته.

لقد لفتني هذا الديوان إلى تكرار موضوعاته وهمومه إذ كانت في معظمها موضوعية تنويرية معاصرة تنبئ بقدوم أديب كبير صاحب هم أكبر وقضية كبرى هي نفسها قضية الأمة الإسلامية الخالدة.

وقد رأيت أن أخصص هذه الدراسة العجلى بواحد من تلك الموضوعات أو الهموم فوقع اختياري عن علم ورغبة لذلك الشعر الذي اختص به حضرموت وطنا وإنسانا لقد كان لافتا ومثيرا ذلك الاهتمام وذلك الحدب اللذان وجههما الشاعر نحو أهله من أبناء حضرموت في وطنهم ومهاجرهم لقد أخلص لقضيتهم ومضى يذوب كالشمعة حتى يضيء لهم درب النهضة ولكن بوصفه فردا حبيبا وأصيلا وقريبا من الأمة العربية الإسلامية لا بوصفهم كيانا مستقلا عن سياقه التاريخي الجغرافي والثقافي والديني.

ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة المتواضعة فما أحوجنا اليوم أن ننقب في سفر النهضة العربية الإسلامية ونتزود بشيء من تلك الروح الكفاحية التي كانت تدب في نفوس روادها وتابعيهم من المفكرين والأدباء والسياسيين لاسيما أن أمتنا اليوم تعيش ضعفا مخيفا وسلبية وغفلة واستسلاما مهينا في حين صار الغزو الأجنبي يكتسحنا

نهارا جهارا في مختلف ميادين الحياة. لقد أشرنا بهذا البحث المتواضع أن نشير إلى تلك الروح الكفاحية التنويرية لدى أديبنا الفذ باكثير وكيف بدأ بأهله من أبناء حضرموت أملا في بقاء هذه النزعة عبر الأجيال متوهجة لايعرف الضعف إليها سبيلا مع اشتداد رياح الغزو واليأس.

وقد قسمنا هذا البحث إلى ثلاثة مباحث تناولنا في الأول في الأول شعر باكثير الوجداني الذي ارتبط بوطنه حضرموت وبإقامته هناك في المرحلة الأولى من حياته وبما مر به من تجارب وجدانية، وتناولنا في المبحث الثاني الشعر الاجتماعي الذي ارتبط بالتنوير والنهضة في حضرموت وفي خارجها إذ يقيم الكثيرون من أبناء حضرموت، وأشرنا في المبحث الثالث إلى بعض الظواهر الفنية البارزة في شعر الديوان بوجه عام وفي الشعر الذي يضم موضوعنا بشكل خاص.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع، وأن يرفع من شأن هذه الأمة ويعيد إليها مجدها العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المبحث الأول
الشعر الوجداني

قد ذكرنا في المقدمة أن الشاعر مكث ما يقرب من عام في عدن بعد أن قدم إليها من حضرموت حزينا جريحا مشردا في الأرض بعد أن تعرض لصدمة عاطفية شديدة مبكرة تمثلت في رحيل زوجته الحبيبة بعد صراع مرير مع المرض، فكانت نزعة الحنين مهيمنة على ما كتبه من شعر في عدن نظرا إلى قرب زمن ما تعرض له في حضرموت وزمن ذكرياته الجميلة مع زوجته الراحلة وزمن طفولته وصباه وشبابه وذكرياته مع أبناء جيله وغيرهم إبان إقامته في حضرموت في الطور الأول من حياته.

لقد وجدنا في ديوان (سحر عدن) وهو الثاني في ترتيب دواوينه الشعرية عدداً من المقطوعات التي نضحت بمعاني الحنين إلى ماضيه القريب في حضرموت وعبرت عن رثائه حبيبته وللمدة التي قضاها في أحضان وطنه حضرموت ، ولم تقتصر هذه النزعة الحزينة الباكية على المقطوعات المستقلة بل تسربت إلى كثير من قصائده وتخللتها وهي قصائد قيلت في موضوعات ومناسبات مختلفة كما سنذكر لاحقا .

ففي مقطوعته المعنونة بـ(الحب والانتظار) يسترجع الشاعر قصة حبه العاصفة مع حبيبته (نور) ويذكر سنوات انتظاره إياها لتغدو زوجة له، وقد كان هذا الاسترجاع بعد أن تزوج منها وعاش معها أحلى لحظات العمر وبعد أن أصابها المرض العضال

وانتقلت إلى بارئها مخلفة الشاعر هائما على وجهه مصدوما برحيلها المفجع، يقول الشاعر[1]:

ألا ليت شعري هل عن الهم مزحلُ ... وهل عن تباريح الجوى متحوّلُ

أيعبر عام بعد آخر بي ولم ... يزل حلما ذاك الوصال المؤملُ

أأقضي زماني هكذا في تعللٍ ... وماذا يفيد المستهام التعلل

إذا ما بدا صبح الرجاء لناظري ... تعرض لي ليل من اليأس أليلُ

تعرض لي ليل من اليأس أليلُ ... إلى سرحة الوادي فيبكي ويعول

تهيجه الذكرى ويخنقه البكا ... وتعلو حشاه بالنشيج وتسفل

ومنديله في كفه ليس بارحا ... تجففه الآهات وهو مبلل

إن المقطوعة عموما تحمل عاطفة عذرية صادقة متأرجحة بين الرجاء واليأس ، تذكرنا بعاطفة الشعراء العذريين في العصر الأموي وبأساليب تعبيرهم عن التجارب الفريدة المعذبة[2]. لقد ذكر محقق الديوان أن الشاعر قد نظم هذه المقطوعة " فور وصوله إلى عدن وهو بعد في غمرة الصدمة جراء وفاة محبوبته التي اختطفها منه الموت في حضرموت بعد زواج قصير"[3].

ولكن لسان حال الأبيات يقول إن المقطوعة تنتمي إلى المرحلة الحضرمية فليس فيها رثاء لحبيبته الراحلة ، بل شوق وانتظار للاقتران بها ، حتى إن لغة المقطوعة وأساليبها وصورها لاتنتمي إلى مرحلة العدنيات و لكنها أقرب إلى المرحلة الحضرمية حيث بدايات الشاعر وتأثره الواضح بالشعر القديم.

وفي مقطوعة أخرى بعنوان (الحب والإيمان) يصوّر باكثير خبر وفاة زوجته الحبيبة الشابة وأثره في نفسه مما يدل على أنه لم يشهد وفاتهاوإنما تناهى إليه الخبر بذلك ، وفي سيرته ما يدل على صحة هذا الاستنتاج[4].

يقول الشاعر[5]:

([1]) سحر عدن: 58 .
([2]) ينظر: في الشعر الإسلامي والأموي ص133 وما بعدها، و: في أدب الإسلام: 482 وما بعدها .
([3]) سحر عدن: 58 .
([4]) سحر عدن: 59 .
([5]) سحر عدن: 60 .

نبـــــأ تلقـــــاه الفـــــؤاد فأنشـــــبت فيـــــه ســـــنانه
فمضـــى ينـــوء بهـــا كمـــط عـــونٍ ينـــوء بـــه حصـــانه
متميـــــز مـــــن حســـــرة فيكـــــاد يلفظـــــه لبانـــــه
آه علـــــى ذاك الحبيـــــب ب جـــــلاء أبصـــــاري عيانـــــه
مـــا كـــان أقصـــر عمـــره مـــا قـــد قضـــى منـــه لبانـــه
اليـــوم مأتمـــه وبالـــ أمـــس الزفـــاف ومهرجانـــه

هذه المقطوعة – كما ترى- أدخل في الرثاء ولكنه رثاء الحب والمحبوب ، إننا لم نجد الشاعر مستطردا أو طويل النفس، فالعاطفة المكلومة لم تسمح إلا بهذه المقطوعة التي شرق الشاعر بها ولكنها تصور موقفا واحدا مؤثرا في مشهد المأساة ألا وهو تلقي خبر الوفاة الفاجعة.

أما في مقطوعة (الحب والموت) فقد رثى فيها الشاعر حبه وحبيبته مصوراً أثر رحيلها في نفسه ولم يمض على هذا الرحيل سوى شهور؛ إذ بدا الشاعر متضرعا إلى الله تعالى أن ينفس عليه كربته ويخرجه مما هو فيه، فعلى الرغم من فداحة مصابه لم يستسلم لمأساته ولم يقنط من رحمة الله ، ولكنه مضى يتلمس السلوان متوسلا الصبر ويجأر إلى الله أن يجعل له مخرجا، وهذا يرجع إلى تربيته الإيمانية وثقافته الإسلامية[1] وتطلعه نحو الحياة مع العراقيل والمصائب، يقول الشاعر[2]:

نســـــف اليـــــأس نفســـــي بعـــــد مـــــوت حبـــــيبي
كـــــل حـــــين لـــــذكرا ه لظـــــى في جنـــــوبي
نارهـــــا في فـــــؤادي دائمـــــا في شـــــبوبي
آه أواه يـــــا ربـــــاه هـــــب لـــــي ذنـــــوبي
آه أواه يـــــا ربـــــاه بـــــرد لهـــــيبي
رب فـــــرّج همـــــومي أ رب واكشـــــف كروبـــــي

(1) ينظر: علي أحمد باكثير: حياته، شعره الوطني والإسلامي: 76 وما بعدها، و 191 وما بعدها.
(2) سحر عدن: 60.

رب هـــــب لـــــي عـــــزاء شـــــــــافيا للقلـــــــــوب
كـــــي يكـــــون ضـــــمادا للثـــــــأي والنـــــــدوب
رب أنـــــــت نصـــــــيري رب أنـــــــت حســـــــيبي

لقد طغى الدعاء على هذه المقطوعة بما فيه من مد للأصوات رغبة في الخروج من شرنقة المأساة والانطلاق نحو آفاق الحياة الجديدة التي استهلها الشاعر بالهجرة إلى عدن ومن ثم إلى الحجاز ثم مصر.

وهناك مقطوعة طويلة ترقى أن تكون قصيدة قصيرة بعنوان (الحب والذكرى) خلصت للحنين ورثاء الحب الأول الذي توارت شمسه عند الضحى، بدأها الشاعر بوصف الذكرى الأليمة ووقعها في نفسه وصراعه المر في سبيل سلوها ونسيانها ولكنه سرعان ما يترك ذلك ليجد في ذخيرته الإسلامية ما يعزيه في مصابه فتنقلب مأساة الحاضر إلى فرح قادم دائم في جنة الخلد إذ سيلقى حبيبته الراحلة ويقترن بها في حياة خالدة. يقول الشاعر متذكرا ومتعزيا[1]:

يـذكرنيك البـدر في غسـق الـدجى وشمـس الضـحى تشـجى فـؤادي بالـذكر
أصـبر عنـك الـنفس والـنفس مـا لهـا وإن أعطيـت ملـك الـدنا عنـك مصـطبر
ولم يســـلني إلا شـــعوري بـــأنني ســـألقاك عنـــد الله في خـــير مســـتقر
دفنـــتم حبيـــب القلـــب أواه ليـــتكم ليـتكم دفنـتم (عليـا) بـين هـاتيكم الحفـر
ليهنـــك قلـــب بـــين جـــنبي ذاكـــر عهـــود هـــواك في العشـــاء وفي البكـــر
حبيبـــة قلـــبي لاتخـــافي وتحزنـــي فـــلا بـــد مـــن لقيـــا وإن بعـــد الســـفر
بحيـث يطيـب العـيش خلـد بـلا فنـا وأنـــس بـــلا هـــمّ وصـــفو بـــلا كـــدر
يظللنـــا الرضـــوان مـــن ربنـــا فلـــن نـــرى ســـخطا منـــه وذا منتهـــى الـــوطر
إلى الملتقـــى يـــا ربـــة الحســـن والرضـــا إلى الملتقـــى يـــا ربـــة الطهـــر والخفـــر
عليـــك ســـلام الله مـــا هبـــت الصـــبا ورحمتـــه مـــا غـــاب نجـــمٌ ومـــا ســـفر

(1) سحر عدن: 61 .

وهناك قصيدة طويلة عنوانها (صدى قصيدتين) نظمها الشاعر من وحي قصيدتين لشاعرين حضرميين هما: محمد بن حسن بن شهاب، وصالح بن علي الحامد، ولم يكن موضوع القصيدة الرئيس هو الحنين ولكن الحنين فيها كان جسراً إلى الموضوع الرئيس ومتنفساً للشاعر المسكون بالذكريات والأيام الخوالي فهو مع جديته والتزامه وإيمانه بعظم رسالته في الحياة لم يستطع أن يتخلص من نوازعه الذاتية وذكرياته الخاصة، وهذا أمر طبيعي لاسيما أن هذه الذكريات لم تثبط رسالته بل لعلها كانت عاملا من عوامل نجاحه في أداء رسالته التنويرية الإسلامية الأدبية الكبيرة في مراحل حياته اللاحقة. يقول الشاعر مستهلا قصيدته[1]:

لعبت بحبة قلبك الأهواء ... من القصيدة تلكم الغراء

ملأت فؤادك بالثمول وملؤه ... هم ولا وتر ولا صهباء

فيم التمايل؟ لم يمل بك ما نما ... كرم ولا ما أنجبت حواء

ماذا ادّكرت بها؟ أأيام الصبا ... حيث الليالي بالسعود وضاء

حيث الهوى ريانة جنباته ... والأصدقاء الغر والندماء

كيف انطوت تلك العهود وأقفرت ... تلك الربوع وشطت النزلاء

الدهر أبخل أن يديم سعادة ... للمرء فانظر كيف حال الماء؟

دع ذا ودونك والعزاء فلم تدم ... في الدهر سراءٌ ولا ضراء

من كان حسن الصبر تجفافا له ... فالبؤس والنعمى لديه سواء

ما الماسة البيضاءُ إن حللتها ... بالعلم إلا الفحمةُ السوداء

فانظر إلى هذا الحنين المشبع بالروح الإسلامية وبفلسفته الحكيمة لقد هيج أشجانه شعر صديقيه ولكنه لم يسرف في حنينه وتذكره ولم يجهل ويخرج عن كونه شاعرا ملتزما صاحب دعوة تنويرية إلى نهضة إسلامية شاملة. لقد كان في هذه المقدمة مفعما بروح الزهد الإسلامي حتى إن بيته القائل :

من كان حسن الصبر تجفافا له ... فالبؤس والنعمى لديه سواء

([1]) سحر عدن: 119، 120 .

يطابق ما قاله عمر بن الخطاب في الزهد إذ قال:" إذا كان الصبر والشكر بعيرين لما باليت أيهما أركب"[1]

وللشاعر قصيدة بعنوان (صدى النهضة الحضرمية) حيا بها مجلة(النهضة الحضرمية) على ما تؤديه من رسالة تنويرية في سنغافورة حيث تصدر ، وكان قد بدأ هذه القصيدة- كما فعل في قصائد أخر – بمقدمة ذات نفس جديد اشتملت على حنين وذكريات وبكاء للماضي القريب ولكن من غير إسفاف أو شطط .

قال الشاعر في مستهل قصيدته[2]:

هل لليالي الماضيات معيد ... وهل الزمان بمثلهن يجود؟

ما زلت تبكي الشجو سالفة المنى ... حتى بكى لبكائك الجلمود

ما أنت والذكرى الأليمة إنها ... دمن الشقاء فما بهن ترود

أتريد بالذكرى رجوع عهودها؟ ... كذبتك نفسك ما ظللت ترود

رفقا بقلبك لا يذوب من الأسى ... إن المغاضر بالأسى موؤد

أفهل بلغت من المشيب عتيه ... حتى غدوت اليأس فيك عتيد

ما زلت في شط الحياة ولم يزل ... ثوب الشباب عليك وهو جديد

ما أنكرت فيك المعالي كفأها ... رغم الخطوب ولا جفتك الغيد

وإذا الفتى سلمت له عدد العلى ... وحلا الهوى فليحي وهو سعيد

قف موقفا بين المعالي والهوى ... تنل العلى والعيش منك رغيد

إن الموفق للقيام وللوفا ... بحقوق كل منهما لرشيد

والغانيات متى سددن على الفتى ... سبل العلى فمصابهن شديد

من قبل ما أودين بابن زبيدة ... ولها بهن عن الكمال يزيد

والمجد غير مزين جنباته ... بالحب مجد ساذج محدود

والحب أم الكون في أحضانه ... تلد الحياة وينشأ الموجود

---

[1] البيان والتبيين: 2/ 802 .
[2] سحر عدن: 127، 128.

لقد بدا الشاعر في المقدمة متمرداً على نزعة الحنين أكثر من خضوعه واستسلامه لها وبدا الصراع واضحا بين طلب الهوى وطلب المجد وقد حاول الشاعر أن يصلح بينهما ويوفق تبعا لنزعته الإصلاحية الوسطية، ومع هذا كان أقرب إلى طلب المجد مطمئنا إليه من غير أن يوصد نهائيا باب الهوى والحب بل جعله مواربا ورأى ضرورة أن يتزود المرء بما يكفي من عاطفة الحب والهوى حتى يعزز المجد نفسه ويقويه وربما كان طلب المجد حالة من الهوى فللناس في أهوائهم شؤون حتى لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[1] إذ يلتقي العقل والعاطفة من غير تنازع ولا اختلاف.

لقد دأب الشاعر في قصائده العدنيات غالبا على أن يبدأها بمقدمات وجدانية فيها الحنين والشكوى وبكاء حبه الأول الذي سطا عليه القدر في مقتبل العمر ، ففي قصيدته المعنونة بـ(يا من لليل العرب طال) التي قالها نصرة للملك عبدالعزيز بن سعود في أثناء حروبه مع الخارجين عليه لم يثنه موضوعها السياسي من أن يبدأها بمقدمة عاطفية لانستطيع أن نزعم بأنها تقليدية لأن الحاجة النفسية إليها كانت ملحة ولأنها جديدة في معانيها وتأريخها قريب من نكبة الشاعر العاطفية كسائر مقدمات هذا الديوان اسمع إليه يحن ويشكو مستهلا قصيدته السياسية[2]:

خفق الفؤاد بما تذكر ... فالنوم عن جفني منفرْ

يا ليل رفقا بالغريب ... نبا به وطن ومعشر

خطف الزمان حبيبه ... وأذاقه الملح المصبر

فمضى يجوب الأرض جوبا ... علله يسلو فيؤجر

الليل جون دائم ... والريح عاتية وصرصر

تكسو الظلام مدارعا ... من عثيرٍ يزجي بعثير

وتمر تدوي في الشقوق ... فتحسب الآساد تزأر

يا وحشة الليل البهيم ... تبيت فيه الريح تزفر

فاصبر على مر القضاء ... فمن يلذ بالصبر يؤجر

ماذا الظلام بدائم ... فكأنني بالصبح أسفر

([1]) الوافي في شرح الأربعين النووية، ص363 ، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين: 27 .
([2]) سحر عدن: 81، 82 .

إن هذه المقدمة لاتختلف عما أثبتناه وعلقنا عليه من مقدمات وجدانية ، من حيث الفكرة الرئيسة وطبيعة العاطفة والروح الإسلامية.

وتعد قصيدة (سلام على سيئون) التي بعثها باكثير جوابا إلى ابن عمه الشيخ عمر بن محمد باكثير من أصدق ما قاله الشاعر في الحنين إلى ماضيه القريب ومسقط رأسه ومسرح أيامه الجميلة في طفولته وصباه وشبابه ، وقد خلصت القصيدة كلها للحنين ومتعلقاته من وفاء وشكوى وسرد ذكريات الماضي ومعاناة الحاضر ولكن من غير يأس أو قنوط إذ كان الرجاء والأمل في المستقبل هما خلاصة هذا الحنين الصادق بحيث غدا الماضي بذكرياته والحاضر بمعاناته منطلقا للشاعر نحو آفاق المستقبل المشرقة وقد كان له ما أراد من غير أن ينسى تلك الذكريات أو يجحدها. لقد آمن فعزم وتوكل وتفاءل خيراً فوجده كما جاء في القول المأثور:

" تفاءلوا بالخير تجدوه"[1]

وهذه بعض أبيات القصيدة[2]:

أخي وأخو الآداب هاج لي الذكرى ... عفا الله عنه شب في كبدي جمرا

أتاني قريض منه يسمو إلى النهى ... فسرعان ما تغدو القلوب له أسرى

فأثبت برهانا جديدا مؤيدا ... على أننا بيت القريض ولا فخرا

سلام على سيئون أنى تطرحت ... بي الحال إن (جاوا) قصدت وإن(مصرا)

فبين ضلوعي صاحب ليس بارحا ... ينوح على عصر كريم به مرّا

أتاني قريض منه يسمو إلى النهى ... فسرعان ما تغدو القلوب له أسرى

سلام على دار السلام وفتية ... بها من شباب الدهر عاطوني الخمرا

بحيث يسود الود ضاحك جونا ... وحيث كرام الكتب ما بيننا تقرأ

سلام على قبر كريم لصاحب ... نعمت به دهرا وتهت به عصرا

بنيت به قصرا مشيدا من المنى ... فشلت يدٌ للدهر هدمت القصرا

رزئت به رزءا لو أن عظيمه ... على جبل لاندك أو كوكب خرّا

تلقته نفسي فاستمر مريرها ... عزاء وجثماني فضاق به أمرا

([1]) ذكره الألباني وقال: حديث لا أصل له، سلسلة الأحاديث الضعيفة: 13 / 829 .

([2]) سحر عدن: 90، 91 .

ومع الأيام لم ينس الشاعر تلك الذكريات الأليمة والسعيدة معا ولكنه لم يستسلم لها ويعيش أسيرا لها بل كانت وقودا صالحا لرحلته المباركة الخالدة.

وحين وصل إلى عدن خبر وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي كان باكثير مقيما فيها قبل أن يرحل إلى الحجاز ومن ثم إلى مصر فتأثر الشاعر لهذا الخبر فشرع يرثي مثله الأعلى (شوقي) رثاء صادقا طويلا كما فعل من قبل في عدن نفسها عندما رثا شاعر النيل : حافظ إبراهيم[1]

وهو في رثائه شوقياً وحافظاً لم يبدأ قصيدتيه بأي لون من ألوان المقدمات ولكنه كان يدخل في الموضوع مباشرة، وقد جرت العادة عند الشعراء القدامى أن لا يستهلوا قصائد الرثاء بمقدمات تمهيدية ، فهل حذا الشاعر حذوهم في ذلك أو أن الموضوع نفسه لا تصلح له المقدمة لأن الرثاء بطبيعته بكاء وحنين وشكوى وغير ذلك من معاني الحزن التي نجدها في المقدمات التقليدية بوجه عام؟ ولكن باكثير وهو في غمرة رثائه لأمير الشعراء لم ينس مأساته في رحيل محبوبته قبل شهور إذ عرج عليها في وسط الفصيدة قائلا[2] :

يـــا بنـــات النيـــل اســـعدن أخـــا ... غربـــة لوّحـــه طـــول الســـفر
شـــرقاً بالـــدمع أهـــدين لـــه ... مـــن نمـــير النيـــل كفـــاً يُعتصـــر
حضـــرموتٌ داره حيـــث التقـــت ... باســـقات النخـــل فيهـــا والســـدر
حيـــث أنفـــاس الصـــبا بـــاردة ... والهـــواء الطلـــق والمـــاء الخصـــر
خطـــف الـــدهر بهـــا مـــن يـــده ... زهـــرة مـــنكن في العمـــر النضـــر
مـــاثلتكن جمـــالاً وحلـــى ... وتســـامت بحيـــاء وخفـــر
فـــانبرى ينشـــد في (مصـــر) العـــزا ... فـــإذا (مصـــر) عليـــه تســـتعر
ســـلبت (حافظهـــا) في غـــرة ... ثـــم شـــوقيها بلمـــح مـــن بصـــر
كـــم تمنيـــت بـــأن ألقاهمـــا ... فـــأرى الوالـــد والعـــم الأبـــر

فهذا رثاؤه لشوقي يتخلله رثاء لمحبوبته لأن الشجى يبعث الشجى .

المبحث الثاني

(1) سحر عدن: 51 .
(2) م. ن : 114، 115 .

الشعر الاجتماعي

كان الشاعر في بداية حياته الأدبية مسكونا بهموم قومه من الحضارم داخل حضرموت وخارجها ولكن من غير تعصب ومن غير أن يكون ذلك الاهتمام على حساب القضية القومية أو الطموح الإسلامي العام وإنما كان اهتمامه ببني قومه إشادة وتقويما وإصلاحا وتنويرا جزءا مهما من أجزاء قضية النهضة العربية الإسلامية وخطوة أولية مهمة على طريق دخول هذا الأديب الفذ في معمعة القضية العربية الإسلامية الكبرى التي خصص لها كل أدبه تقريبا شعرا ونثرا.

ولكن البداية كانت من هناك من حضرموت إذ بدأ يشتغل بهموم قومه في وطنهم ومهاجرهم مشيدا بما يراه مشرقا في حياتهم وإيجابيا ومقوما ما يراه معوجا في سلوكهم الجماعي ومصلحا ذات بينهم ومعريا الآفات التي سادت في حياتهم وموجها لهم في طريق النهضة الحديثة كما سنرى فمن القصائد التي تضمنت معاني الإشادة بأعمال قومه وإنجازاتهم تلك القصيدة التي نظمها عند قيام أعضاء نادي الاتفاق من المهاجرين الحضارمة في أديس أبابا في الحبشة بتأسيس مدرسة عربية إسلامية إذ صدح الشاعر من عدن مضمنا قصيدته معاني الإشادة والاحتفاء بهذه الخطوة الحميدة التي أثلجت صدره وصادفت هوى تنويريا في نفسه، فمن أبيات هذه القصيدة[1]:

على إخواننا المتديرينا ... أديس أبابا سلام المخلصينا

سلام الشاكرين لما بنو من ... علا لبني العروبة أجمعينا

تذكرنا بهم عهد النجاشي ... وهجرة (آل طه) الأكرمينا

أبوا ضيم الأعادي يمتطيهم ... بدار الشرك فامتطوا السفينا

إلى حيث المقام يطيب فيه ... لعباد الإله الذاكرينا

رأت أخلاقهم عين النجاشي ... فآمن إذ رأى الحق المبينا

فيا لمواطن هبطت إليها ... ملائكة السلام مبشرينا

تلقتهم بحبٍّ واحترام ... كما يستقبل الخدن الخدينا

مشى عثمان ذو النورين فيها ... وجعفر والرفاق الآخرونا

ففي جنباتها منهم ضياءٌ ... وعرف لن يغور ولن يبينا

([1]) سحر عدن: 94، 95 .

لقد حياهم الشاعر في البدء مشبهاً إياهم بأجدادهم الذين هاجروا إلى الحبشة في أول الدعوة الإسلامية فارين بدينهم ، وفي ذلك ربط حصيف بين ماضي الإسلام وحاضره ، ثم مضى الشاعر يصف أبعاد هذا الإنجاز ويشيد بمن قام به ، لافتا الأنظار إلى هذا الإنجاز النهضوي كي يكون أسوة لقومه في مهاجرهم المختلفة.

وحين حدث الصلح بين العلويين والإرشاديين من أبناء حضرموت المهاجرين في جيبوتي على يد العالم الشيخ محمد سالم البيحاني رحمه لله الذي شد الرحال من عدن من أجل عقد هذا الصلح بين الإخوة حين ذاك كان باكثير في عدن ، وقد انفعل لهذا الحدث الطيب كعادته في الأحداث الإيجابية فنظم قصيدة طويلة متغنيا بهذا العمل ومؤرخا له ومسجلا أبعاده ومنوها به مثالا يحتذى إذ قال في مقطعها الأول[1]:

نـــورا أرى مـــلأ الفضـــاء بريقـــا ... في الشـــاطئ الشـــرقي مـــن [أفريقـــا]
ارتـــد في شمســـان فضـــل شـــعاعه ... فحســـبت موســـى تحتـــه مصـــعوقا
أســـنا نجـــوم الهجـــرة الأولى أضـــا ... أم تـــاج بلقـــيس أضـــاء شـــروقا
لا بـــل هنـــاك بنـــو العروبـــة أشـــرقت ... شمـــس الوفـــاء علـــيهم تأليقـــا
إن كنـــت مـــن ذاك الســـنا في مريـــة ... فـــاقرأ بشـــائرهم أتـــت تصـــديقا
طلعـــت علـــيهم مـــن أســـرة مصـــلح ... وافي يـــذم إلـــيهم التفريقـــا
لم يـــأل منطقـــه وحســـن بيانـــه ... لقلـــوبهم – رغـــم القلـــى- ترقيقـــا
أفضـــى إلى إحـــن القلـــوب فســـلها ... منهـــا ووفـــق بينهـــا توفيقـــا
أيـــه محمـــد لا عـــدمت كفـــاة ... قـــد طوقتـــك بفخرهـــا تطويقـــا
مـــر نـــادي الإصـــلاح فليفخـــر بمـــا ... نطقتـــه مـــن ســـؤدد تنطيقـــا
مثلتـــه للمســـلمين أبـــا لهـــم ... بـــراً بولـــد المســـلمين شـــفيقا
الله يشـــكر والملائـــك بعـــده ... والنـــاس أجمـــع ســـعيك المرموقـــا
يكفيـــك أنـــك بالـــذي حققتـــه ... ذكرتنـــا الصـــدّيق والفاروقـــا

(1) سحر عدن: 99، 100 .

وهكذا مضى الشاعر مشيداً بالحدث ومتغنياً به مشيرا إلى براعة الشيخ البيحاني في عقد الصلح وتأليف القلوب فضلا عن ذكره قضايا أخرى سنذكرها في مكانها من هذه الدراسة المتواضعة.

وفي قصيدة باكثير (صدى النهضة الحضرمية) التي حيا بها الرابطة العلوية نجده يشيد بواحد من أعلام حضرموت في سنغافورة ألا وهو الأديب الصحفي طه بن أبي بكر السقاف محرر المجلة الشهرية الشهيرة (النهضة الحضرمية) الذي كان زميلا للشاعر في صباه ودراسته إذ يقول بعد مقدمة وجدانية تناولناها في موضوع الحنين[1]:

أم شـــاق قلبـــك عهـــد نـــدمان لـــه ... ودّ بأعمـــــاق الفـــــؤاد أكيـــــد

حالـــــت مـــــودات الرجـــــال ووده ... بـــــاق علـــــى أن المـــــزار بعيـــــد

مـــلآن مـــن كـــرم وأمـــا فعلـــه ... فرضـــى وأمـــا خلقـــه فحميـــد

نادمتـــه – والـــدهر في غفواتـــه- ... في حضـــرموت وكـــل يـــوم عيـــد

إلى أن يقول:

هـــذي صـــحيفته تمثّـــل روحـــه ... خلـــل الســـطور كأنـــه مشـــهود

كنـــز مـــن الآداب أخرجـــه لنـــا ... طـــه الأديـــب الأروع الصـــنديد

جمـــع اللآلـــئ فاتســـقن جـــواهراً ... يحلـــو بهـــن مـــن البيـــان الجيـــد

يضـــطر قارئهـــا إلى إتمامهـــا ... نغـــم البيـــان كأنـــه تغريـــد

ويقول مشيدا بنهج المجلة المحايد الموضوعي ومشيرا إلى ما يخالفها من المجلات المتعصبة[2] :

تـــدع التعصـــب جانبـــا فتجيئنـــا ... بيضـــاء إذ صـــحف المهـــاجر ســـود

بليـــت بأقـــذار الشـــتائم شـــلّة ... منهـــا وأخـــرى شـــأنها التقليـــد

تخشى انبثاق النور من فجر الهدى ... فيفـــك غـــلّ أو تحـــلّ قيـــود

لقد أشاد الشاعر إشادة موضوعية بمجلة (النهضة الحضرمية) وبصاحبها الأديب طه بن أبي بكر السقاف بما مثلاه من واقع ورمز، بيد أن الشاعر لم يكتف بالإشادة والتنويه ولكنه اختتم قصيدته مخاطبا صاحب المجلة حاثا إياه على طلب المعالي والمجد مبينا له طريق الإصلاح والتنوير إذ يقول[3]:

([1]) سحر عدن: 128، 129 .
([2]) سحر عدن: 130 .
([3]) م . ن : 131 .

(طـه) عليـك مـن البحـار تحيـة ... كنسـيم خلقـك نفحهـا المـورود
نـوّه بـآداب الـبلاد مباهيـا ... ق عليهـا للفخـار بنـود
وانشـر محاسـن (حضـرموت) فإنهـا ... أ للباقيـات الصـالحات ولـود

وانـدب إلى الإصـلاح بالحسـنى فـلا ... إصـلاح حيـث اللـوم والتنديـد
وانـع الجمـود فنعيـه أشـهى إلى ... أسماعنـا ممـا يـرن العـود
طلعت ع هذا مجال المجد دونك واسعا ... فاركـب جـواد العـزم حيـث تريـد
واقـرع بكفـك أي بـاب شـئته ... نبـذ لـك المفتـاح والإقليـد

وتغـاب عـن لفـظ الحسـود فحسـب مـن ... فـرع المعـالي أن يـراه حسـود
واذكـر أخـا لـك أن تشـط بـه النـوى ... سـلاه عنـك نهوضـك المنشـود
الله أكـبر إذ حـديثك كلّـه ... درر وهـذا صـوتك المعهـود

وعندما كان الشاعر في طريقه إلى جدة من عدن بحرا ساجله رفيقه في الرحلة الأديب السيد أحمد المشهور الحداد شعرا فرد عليه باكثير بقوله[1]:

يـا أيهـا النـدس العصـامي الأبـي ... وهـو الكـريم الجـد مشـهور الأب
إنـي ليعجـبني نزوعـك للعلـى ... وطمـوح نفسـك للمقـام الأغلـب
ولـئن تعشـقت الجديـد فإنمـا ... ذاك الجديـد هـو الـذي عـرف الـنبي
أولـيس ديـن الله ديـن حضـارة ... وسـعادة وتقـدم وتغلـب
فلـي الفخـار بـأن رأيـك عينـه ... رأيـي ومـذهبك المسـدد مـذهبي

لقد أعجب السيد الحداد بشاعرنا عندما وجده طموحا وصاحب دعوة وقضية وهو لا يزال شابا ، وكان قد لاقى هذا الإعجاب إعجابا آخرا مقابلا هو إعجاب باكثير بهذا الداعية الحضرمي وقد أشاد في مقطوعته بما أنجزه السيد الحداد في ميدان الدعوة الإسلامية في بقاع كثيرة من العالم ، لقد تشابه الرجلان من حيث االنزعة إلى الدعوة والتنوير والتجديد ومكافحة الجمود والجهل والبدع المضلّة.

([1]) سحر عدن: 160 .

وبالقدر الذي كان يشيد باكثير بقومه ويعتد بهم على ما أنجزوه وينجزونه في وطنهم ومهاجرهم في ميادين مختلفة فقد كان أيضا يحثهم على المعالي والأخلاق الرفيعة ويدعوهم دعوة صادقة صريحة إلى التغيير الإيجابي والتجديد في حياتهم بمختلف جوانبها لاسيما أنه وجدهم متأخرين عن ركب الحياة الجديدة مشدودين إلى حياة الجمود والمحافظة السلبية تغشاهم البدع والخزعبلات والخلافات التي لا مسوغ لها ولا تثمر سوى الفتنة والتفكك والانقسام المقيت وإحياء العصبيات.

ففي قصيدته (ولو ثقفت يوما حضرميا) التي مررنا بها من قبل نجده ينزع نزوعا واضحا إلى الدعوة إلى التنوير معتمدا على الأسلوب الخطابي المباشر إذ يقول[1]:

على ذاك الأساس فشيّدوها ... مدارس عامرات للبنينا
على ذاك الأساس فشيدوها ... نوادي للشباب الناهضينا
هنالك فارفعوا الإسلام شأنا ... وبثوا هديه في العالمينا
وكونوا حجة للدين فيهم ... وردوا عاديات المعتدينا

إلى أن يقول حاثاً وناصحاً[2]:

فثوبوا للوفاق ولا تكونوا ... براقش واسمعوا النصح المبينا
دعوا الأحداث للتأريخ يرقم ... عليكم أو لكم ما تعملونا
وربكم بكم أدرى تعالى ... ففيم على المدى تتنابزونا
ومن يحسن ويعمل صالحات ... فإن الله يجزي المحسنينا

وهذه الأبيات وغيرها تدعو إلى تشييد المدارس والنوادي في مهاجر الحضرميين وفي وطنهم والرفع من شأن الإسلام ونشره والرد على المعتدين في جميع الميادين ، كما يلح في دعوته إلى نبذ الفرقة وإلى الوفاق والوحدة ورص الصفوف.

أما في قصيدة (لولا جمود الحضرمي) فيوجه الدعوة على هذا النحو[3]:

ثوبوا إلى هدي النبي وصحبه ... تجدوه سهلا واضحا مطروقا
وعقيدة السلف النقية إنها ... أقوى وأقوم حجة وطريقا

(1) سحر عدن: 95 .
(2) سحر عدن: 97، 98 .
(3) سحر عدن: 106 .

واقضـوا علـى البـدع المضـلة إنهـا بـدع هـوت بالمسـلمين سـحيقا

هـي ضـيعت أوطـانهم هـي مزقـت سـلطانهم وكيـانهم تمزيقـا

والـدين ديـن الله ديـن محمـد لا يعـرف التـابوت والصـندوقا

أنـا لا أبـالي إذ نصـحت بـني أبـي أدعيـت ضـدا أم دعيـت صـديقا

إذ قـد علمـت بـأنهم مـن بعـدها سيصـدقون مقـالتي تصـديقا

لـولا جمـود الحضـرمي وجهلـه بلغـت مواهبـه بـه العيوقـا

فهذه دعوة صريحة وملحة إلى العودة إلى هدي النبي - صلى الله عليه وسلم- وإلى عقيدة السلف النقية وترك البدع والجمود مبينا الآثار السلبية لكل ذلك في حياة الشعوب والأوطان.

وفي قصيدة (صدى النهضة الحضرمية) التي توزعت أفكارها الجزئية على الحنين والإشادة والدعوة إلى التجديد واستعراض الخلاف بين الحضارم في مهاجرهم وبيان أسبابه وما يؤدي إلى استئصاله في هذه القصيدة نفسها لزم الشاعر دعوته التي كانت ديدنه في كل حياته وأدبه فها هو يقول[1]:

ثوبـوا إلى القـرآن لا يصـددكمُ عنـه جحـود أو هـوى وجمـودُ

وذروا التقاليـد العتيقـة إنهـا عـبء علـى المتنـورين عتيـدُ

لا تنكـروا التجديـد في عـاداتكم فالعصـر مـن آياتـه التجديـدُ

وامشـوا علـى سـنن الخليقـة إنهـا تبقـى وتثبـت والجبـال تبيـدُ

ومـن العنـاء بنـاء سـدّ حـاجز في وجـه سـيل مـا تقيـه سـدودُ

فهذه دعوة أخرى إلى العودة الحميدة إلى القرآن الكريم والتمسك به ونبذ الجحود والجمود والهوى وترك التقاليد والعادات السلبية التي ما أنزل الله بها من سلطان واتخاذ التجديد منهجا وعدم إنكاره أو رفضه أو الخوف منه، وكذا اتباع السنن الإنسانية الثابتة وعدم الوقوف في وجه التجديد والتطوير لأنهما من سنن الحياة والكون.

([1]) سحر عدن: 131 .

ولم يغب عن اهتمام الشاعر ذلك الانقسام الحاد الذي كان ناشبا بين قومه الحضارم لا سيما في مهاجرهم المختلفة فما فتئ يردد في شعره تفاصيل ذلك الصراع المؤسف العقيم ويدعو إلى الخلاص منه ويضع يده على أسبابه ويجتهد في وضع المعالجات الناجعة له وقد كان ذلك الانقسام الذي أرق الشاعر وهو بين العلويين من أبناء حضرموت وبين الإرشاديين وكان لكل من الفريقين منابره الإعلامية وقد اشتطوا جميعا في اختلافهم وخرجوا عن طور الاختلاف السوي أو الإيجابي أو المشروع كما سنرى.

ففي قصيدته التي أنشأها بمناسبة قيام أعضاء نادي الاتفاق بأديس أبابا بإنشاء مدرسة عربية إسلامية التي عدنا إليها في مواطن مختلفة من هذه الدراسة حسب موضوعاتها وجدنا الشاعر باكثير رحمه الله تعالى في أثناء احتفائه وفرحته بهذا المنجز الكبير يعرج على قضية الخلاف الذي كان محتدما بين العلويين والإرشاديين من الحضارم في مهاجرهم المختلفة مستغلا هذه المناسبة المشرقة ليدعو الجميع إلى نبذ الفرقة وتجاوز أسباب الشقاق والعودة إلى الوفاق والانطلاق إلى أداء الرسالة المشتركة ، إذ يقول مخاطبا أعضاء نادي الاتفاق[1]:

رأيتم سوء عاقبة التعادي ... فكنتم بالإخا مستمسكينا
فهل لبني أبينا أن يروكم ... بأقصى الشرق؟ هل لبني أبينا
لعلهم بكم إما رأوكم ... نهضتم بالتآخي يقتدونا
فهم سبقوا إلى النهضات لكن ... بفرقتهم غدوا متقهقرينا
قد اختلفوا وما اختلفوا لشيء ... سوى عصبية وقدت أتونا
وأهواء بأدمغة صغار ... تلاعب كالصوالج بالكرينا
غرورٌ قد مشى حسدٌ إليه ... على علميهما يتقاتلونا
فمن خمريهما أضحوا سكارى ... وقومي بينها يتشاتمونا
فوا أسفا شعوب الأرض ترقى ... أفاعي الخلف رافعة قرونا
إذا طالعت صحفهم بدت لي ... وعرف لن يغور ولن يبينا
بها الأهواء عالية صراخا ... وليس بها صدى للمصلحينا

(1) سحر عدن:

إلى أن يقول[1]:

أرى الإنصـــاف طـــبكم جميعـــا متـــى ياقومنـــا تتناصـــفونا

ولـــيس كقلـــة الإنصـــاف شـــيء يغـــيظ علـــى أصـــولهم البنينـــا

فإن الشاعر هنا يشيد بأعضاء نادي الاتفاق كما ذكرنا من قبل ويذكر لهم اختلاف إخوانهم في مهجر آخر فتكون رسالته مزدوجة فهي موجهة إلى أولئك المختلفين حتى يرعووا عن غيهم وخلافهم ويحذوا حذو إخوانهم في الحبشة الذين هم متفقون وموجهة كذلك إلى مهاجري الحبشة من الحضارم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه إخوانهم المهاجرون في اندونيسيا من شقاق مؤسف ، وهكذا كان الشاعر يبرز اللوحة كاملة بما فيها من نقاط سوداء وبيضاء هنا وهناك فلا يقوده السواد إلى القنوط واليأس ولا يقوده البياض إلى الغرور والغفلة والخيلاء .وقد أشار كذلك إلى أسباب ذلك الانقسام المقيت من مثل : العصبية والأهواء وقصر النظر والغرور والحسد، كما بدا الشاعر متحسرا على ما آل إليه الحال من جراء هذا الاختلاف في ظل غياب المصلحين.

وحين جرى الصلح بين الفريقين المتخاصمين من المهاجرين الحضارم في جيبوتي على يد العالم الشيخ محمد بن سالم البيحاني هلل الشاعر لهذا الحدث المبارك كما ذكرنا في مكان آخر من هذه الدراسة ولكنه في أثناء ثنائه على الذين اتفقوا ونبذوا الخلاف لم ينس أن هناك إخوة آخرين لا يزالون مختلفين فعرج عليهم قائلا[2]:

وذكـــرت إخـــواني باندونيســـيا فوقعـــت في بحـــر الهمـــوم غريقـــا

هـــم خربـــوا بيـــد الشـــقاق بيـــوتهم ا وجـــروا أمومـــة حضـــرموت عقـــوق

يـــا قـــوم مـــاذا جئـــتم مـــن ســـوءة قـــد أوقـــرتكم مـــن المـــلام وســـوقا

أو مـــا رعيـــتم حـــق مســـجد ربكـــم فـــأقمتم فيـــه المـــآثم ســـوقا

أأبحـــتم شـــهر الصـــيام فثـــرتمُ فيـــه فريقـــا يقتلـــون فريقـــا

فلتســـألن لـــدى القيامـــة عـــن دم في قلـــب مســـجد (بنـــدواس) هريقـــا

مـــن أطفـــأ المصـــباح مـــن شـــهر المـــدى مـــن روع المتعبـــدين طروقـــا

([1]) سحر عدن: 97 .
([2]) سحر عدن: 101، 102 .

إن اهتمام الشاعر بشؤون قومه جعله يتتبع معظم تفاصيل ما كان يجري بينهم من خلاف حاد فيعيد عرضه في شعره معريا إياه ومنفرا كأنما يعتصر الجرح المفتوح بيده حتى يشفى ويتبلسم، لقد قرر الشاعر أن اختلافهم ذاك إنما هو عقوق لتأريخهم ولوطنهم مصورا بعض الحوادث المؤلمة التي تمخض عنها ذلك الصراع العنيف بين الفريقين بهدف العتاب والتقريع والزجر، لقد كان يشفق على قومه ويحنو عليهم ويبصرهم رائدا لا يكذب أهله.

أما في قصيدته (صدى قصيدتين) فنجد باكثير يشير إلى ذلك الخلاف نفسه الذي عصف بقومه في مهاجرهم المختلفة، لاسيما في أندونيسيا وكأن عينا قد أصابتهم ، لقد صارت قضية الشاعر هي قطع دابر الفتنة التي نشيت بين أبناء وطنه سواء في مهاجرهم أم في وطنهم على ما كان لهم من دور عظيم في نشر الدعوة الإسلامية في أصقاع مختلفة في آسيا وأفريقيا.

لقد كان الشاعر يتعذب بسبب هذا الانقسام الحاد بما جره من تبعات مؤسفة وكان يكافح شاعرا ومصلحا من أجل القضاء عليه. ففي هذه القصيدة يقول[1]:

إذا لاح لي شبح انقسام بني أبيُ ... فيها بحيث تمايل النعماء

فتمثلت لي صورتان، فصورة ... قيد العيون وصورة نكراءُ

بين الشعوب تجد في نهضاتهاُ ... لعبت بقومي جهدها البغضاء

شطوا وغالوا في الشقاق وبينهم ... دين ووحدة موطن وإخاءُ

ظلموا المبادئ إذ أساءوا هضمها ... يا للرجال المحسنين أساءوا

إن المبادئ لا تفيد ثمارها ... ما لم يجدها الرفق والإغضاءُ

ومن ثم يوجه خطابه إلى هؤلاء المختلفين راسما لهم طريق النجاة من هذه الهوة التي وقعوا فيها على ما يتمتعون به من علمٍ وإحسان وأخلاق ولكن الأهواء والعصبية غلبت علمهم وحلمهم، إذ يقول ناصحاً ومرشداً [2]:

فتصافحوا بيد الإخاء فإنما ... فوز العشير على العشير بلاءُ

وضعوا على أقدامكم ما قد مضى ... ما بينكم ترةٌ ولا أشلاءُ

([1]) سحر عدن: 121، 122 .
([2]) سحر عدن: 122 .

ودعـــوا الســـباب فإنـــه عـــار بكـــم إن كـــان يجمـــل بـــالكلاب عـــواءُ

قـــد آن أن تشـــفى الحقـــود وتنتهـــي ســـنة الرقـــود وتنبـــذ الأهـــواءُ

فـــإلى متـــى تبقـــون في حـــال لهـــا يبكـــي الحلـــيم وتضـــحك الســـفهاءُ؟

لقد تأخر قوم الشاعر عن ركب الشعوب الناهضة بسبب هذه الخلافات المتخلفة فليس من النصر في شيء حين يفوز فريق على فريق في إطار الوطن الواحد والشعب الواحد والدين الواحد فإنما ذلك بلاء وهزيمة لقد قيل أن الذين يتطرفون في خصومتهم إنما يستمد كل فريق منهم شرعيته من تطرف الآخر وهنا تغيب الحقيقة وتتراجع الحلول بسبب غياب التوسط والرفق والإعذار.

وكان باكثير وهو في خضم إشادته الموضوعية بإنجازات قومه والدعوة إلى النهوض والتجديد واستعراض خلافاتهم المثبطة ومعالجتها كان يشير في أثناء قصائده إلى آفات اجتماعية وثقافية ودينية تسللت إلى حياة قومه فعكفوا عليها محافظين ومدافعين ، فمن أمثلة ذلك قوله في وصف أهله الحضارم[1]:

وجـــروا بمضـــمار التجـــارة ســـبقا لم تســـتطع بهـــم الشـــعوب لحوقـــا

حتـــى أتـــى عصـــر العلـــوم فـــأحجموا إذ شمـــرت تلـــك الشـــعوب الســـوقا

فـــإذا بهـــا عرفـــت مصـــائد ريحهـــا وإذا بقـــومي ينكـــرون الســـوقا

عكفـوا علـى (البـاتيق) لـو يبقـى لهـم لكـــن قـــومي ضـــيعوا الباتيقـــا

فها هو يشير إلى آفة الجمود والمبالغة في المحافظة والإحجام عن مواكبة العصر لأن البقاء عند درجة معينة من التطور يؤدي إلى التأخر والتقهقر لأن الحياة تمضي والشعوب تتقدم فلا بد من المواكبة الواعية إلى أن يقول في القصيدة نفسها[2]:

أمـــا الخـــلاف فســـنة النهضـــات إذ تبـــدو وإذ يغـــدو الجديـــد عتيقـــا

لكـــن قـــومي والحقـــائق مـــرّة فســـقوا عـــن الـــنهج الحكـــيم فســـوقا

ســـبوا رفـــات الميـــتين وأنكـــروا نســـبا صـــريحا بـــالثبوت حقيقـــا

وتراشـــقوا فحـــش الكـــلام فـــأرقوا عـــين الحيـــاء بهجـــرهم تأريقـــا

([1]) سحر عدن: 103 .
([2]) م . ن : 104، 105 .

تركـــوا الشـــعوب ولهوهـــا بعلومهـــا وعنـــــوا بلفظـــــة ســـــيدٍ تحقيقـــــا

يتنـــــــازعون ســـــــيادة موهومـــــــة أتـــــرى الســـــيادة أصـــــبحت إبريقـــــا

أهـــون بهـــا لقبـــاً ســـرى في النـــاس لم يســـــــتثن ســـــــكيراً ولا زنـــــــديقا

شـــــرف النبـــــوة لا يـــــزول بـــــأحرف تمحـــى فمـــا مـــلء الفضـــاء نعيقـــا

وعقـــود أهـــل البيـــت أغلـــى قيمـــة مـــــن ان تســـــامي لؤلـــــؤاً وعقيقـــــا

فالشاعر يشير بوضوح إلى عدد من الأمراض الاجتماعية التي دبت في جسد مجتمعه مثل العصبية والتمسك بالشكليات والتفرغ لها والشعور بالتميز والتفاخر بالأنساب على حساب الأعمال الصالحة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[1].

ملاحظات فنية :

رصد البحث بعض الظواهر الفنية والأسلوبية في القصائد والمقطوعات الواقعة في إطار موضوع الدراسة وهذه الظواهر موجودة في قصائد الديوان ومقطوعاته بوجه عام وسيقتصر البحث هنا على الإشارة السريعة إلى هذه الظواهر وذلك على النحو الآتي:

لقد وجدنا باكثير في ديوانه (سحر عدن) عموما وفي شعره الذي يدخل ضمن موضوع الدراسة(بلاد الأحقاف في شعر باكثير) وديوان سحر عدن نموذجا لشاعر ينزع بقوة نحو الاهتمام بالمضامين الشعرية ولا يتأنف كثيرا في خدمة الجوانب الفنية إلا ما جاء عفو الخاطر أو ما اقتضته المضامين نفسها أو ما كان ضروريا كالوزن والقافية وغيرهما، ولعلّ سبب ذلك هو حرص الشاعر على الموضوعات الشعرية نفسها بما تتضمنه من تفاصيل وحرصه على بسطها وتحليلها بما يقربها من النثر ويبعدها عن الشعر ولغته وخصائصه ولعلّ هذا هو ما جعل باكثير يتجه نحو الشعر المرسل لما فيه من حرية نسبية ولقدرته على خدمة المضامين والأفكار التنويرية التي يريد الشاعر أن يبثها في مجتمعه الذي ينقصه التنوير ولا ينقصه الاستمتاع الفني بالشعر، ثم تجاوز الشعر المرسل نفسه ليجد ضالته في كتابة النثر من مسرحيات وقصص لأن النثر أقدر على استيعاب المضامين التنويرية المختلفة التي مثلت هاجس الشاعر وقضيته الأساس خلال مشوار حياته المباركة. ومن هنا كان شعر الديوان في معظمه شعر دعوي تنويري تميز بالمباشرة وجنح نحو النثرية والخطابية.

([1]) سنن ابن داؤود 3/ 317 .

لقد أنزل باكثير الشعر من برجه العاجي وزجّ به في معمعة الحياة والنهضة والتنوير والإصلاح وجعله ملتزما بما آمن به من فكر إسلامي جديد متجدد شديد الارتباط بالينبوع الإسلامي السلفي الأصيل من غير شطط أو تطرف أو تعصب.

ولنا أن نعد باكثير مما درسناه من شعره شاعراً كلاسيكياً جديداً من حيث التجديد في موضوعاته ومضامينه الشعرية فهي جديدة ومعاصرة ومرتبطة بحياة الأمة أشد الارتباط وهي ليست ذاتية أو تقليدية أو منطلقة من ترف فني أو فكري مع أن الشاعر كان قادما من بيئة شعرية محافظة وتقليدية إلى حدّ كبير.

وقد عمد الشاعر في أداء هذه الموضوعات والمضامين على لغة شعرية رصينة تأرجحت بين المعجم التراثي لاسيما القرآني والمعجم الحديث السهل الممتنع وهذا ما قربه من الكلاسيكية الجديدة وإن لم يلتزم بكل خصائصها الفنية.

وجدنا الشاعر في هذا الديوان يمدح ويهجو ولكنه نأى عن المدح والهجاء التقليديين، فهو إنما كان يشيد بالقيم وبالمنجزات في مختلف ميادين الحياة الجديدة ويهجو أو يذم كل ما هو سلبي وعقيم كالجمود والجهل والتخلف والخزعبلات الدينية والاجتماعية والتفرقة وغير ذلك. وحين كان يمدح ما حققوه من إنجازات في ميدان الدعوة والنهضة، فقد أشاد مرارا بالدعاة والمجاهدين والعلماء وغيرهم من بناة النهضة الحديثة.ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر مال عروضيا فيما تناولناه من شعره إلى بحر الكامل ومجزوئه وهذا يخالف الشعراء التقليديين إذ كان الطويل طاغيا على شعرهم ولعل بحر الكامل كان أنسب للشاعر الذي ينشد الكمال في زمانه الذي كان يحرص على بسط المضامين فيها في هذا البحر من طول نفس ومرونة في تفعيلاته مع ما يصيبها من زحافات وعلل ولهدوء موسيقاه وقربها من موسيقى النثر إلى حدّ ما. أنظر ص5 .

وهناك ظاهرة أخرى في ديوانه (سحر عدن) لاسيما في الشعر الذي تناولناه في هذا المبحث ألا وهي المناسباتية فقد وجدنا أن جل قصائده ومقطوعاته إن لم نقل كلها قد نظمها الشاعر في منا سبات مختلفة حتى بعض مقطوعات الحب والحنين وجدنا أنها ارتبطت بمناسبة معينة وهذا يعزز ما ذكرناه سابقا من أن الشاعر كان يحتفل كثيرا بالمضامين الشعرية ، وهكذا يكون في الغالب شعر المناسبات محتفلا بالمضامين ومتغاضيا عن الخصائص الفنية ومع هذا كان باكثير مخلصا لموضوعاته وما تتضمنه من تفاصيل حتى إذا جاء شعره في مناسبات معينة لأنها مناسبات ارتبطت باتجاهه التنويري ولاقت هوى في نفسه ولم تكن مناسبات عابرة خارجة عن همّ الشاعر وقضيته وديدنه ، ثم إنه لم يخضع لهذه المناسبات الخارجية على الرغم من شدة ارتباطها به وبتوجعه، ولكنه كان يسقط عليها فكره التنويري وينحو بها مناح جديدة

نهضوية كأنما المناسبات لم تفرض عليه لكنه هو الذي فرض نفسه عليها ووظفها توظيفا فكريا في شعره، وكانت فرصا سانحة ليفجر من خلالها ينابيع فكره النهضوي.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة السريعة الممتعة في رحاب شعر باكثير في بلاد الأحقاف يرى البحث أن يشير إلى أهم ما استطاع أ يستنبطه من ذلك الشعر على المستوى الموضوعي والفني وذلك على النحو الآتي:

1- كاد شعره الوجداني الذي خصّ به بلاد الأحقاف وأهلها أن يقتصر على الحنين إلى ماضيه القريب الذي قضاه في رحاب حضرموت وطنه الأصلي، وعلى رثاء الحب والحبيبة الراحلة.

2- جاء شعره الوجداني في ديوانه الثاني (سحر عدن) مجسداً في عدد من المقطوعات المستقلة من ناحية وجاء كذلك من خلال مقدمات بعض القصائد ذات الطابع الاجتماعي والسياسي.

3- وجدنا الشاعر- على الرغم من هول صدمته العاطفية المبكرة- متماسكاً صابراً محتسباً وكان لتربيته الإسلامية والإيمانية الأثر الواضح في شعره ذلك وفي سلوكه وتعامله وما جرى له، كانت تلك المعاناة حافزاً له إلى الكفاح والضرب في الأرض والإسهام الكبير في النهضة والتنوير أدبياً وثقافياً في الحياة العربية والإسلامية المعاصرة.

4- وفي شعر باكثير الاجتماعي الذي كان خاصاً ببلاد الأحقاف وأهلها جرت الإشادة بقوم الشاعر وبما كانوا ينجزونه في ميادين النهضة الحديثة في وطنهم ومهاجرهم ، وقد تردد في ذلك الشعر نفسه إلحاح الشاعر على الدعوة إلى التغيير الإيجابي والتجديد والتمسك بمبادئ الإسلام وكتابه المقدس ونبذ الفرقة والجهل والجمود والبدع المضلّة، كما حفل شعره الاجتماعي بمعاني الإصلاح والعمل على ردم الخلاف الذي كان ناشباً في المجتمع الحضرمي بين العلويين والإرشاديين.

5- أما على مستوى الظواهر الفنية فقد وجد البحث أن الشاعر كان مهتماً أشد الاهتمام بالمضامين الشعرية وحريصا على توصيلها إلى المتلقي وكان ذلك- إلى حدّ ما- على حساب الخصائص الفنية للشعر لغةً وصوراً، وقد عددنا الشاعر كلاسيكيا جديداً نظراً إلى موضوعاته ومضامينه الجديدة التي لبست ثوب الخصائص الفنية التقليدية للشعر العربي إلى حدّ ما ، كما وجد البحث أن معظم المقطوعات والقصائد التي دخلت في موضوعه كان الشاعر قد نظمها

في مناسبات معينة إلا أنه سخّر تلك المناسبات لبلوغ أهدافه النهضوية التنويرية من خلال الشعر.

مكتبة الشعر:

1- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت الطبعة الأولى 1993م.

2- ديوان علي أحمد باكثير : سحر عدن وفخر اليمن، تحقيق وتقديم ،د، محمد أبوبكر حميد، مكتبة كنوز المعرفة جدّة، دار حضرموت للدّراسات والنشر: المكلا، الطبعة الأولى 2008م.

3- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم الجوزية ، تحقيق بشير محمد عون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى 2000م.

4- سلسلة الأحاديث الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني ، دار المعارف الرياض، الطبعة الأولى 1992م.

5- سنن أبي داود للإمام الحافظ إبي داود سليمان بن الأشعث، مراجعة وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر .

6- علي أحمد باكثير: حياته، شعره الوطني والإسلامي، د، أحمد عبدالله السومحي، دار البلاد، جدّة، الطبعة الأولى 1982م.

7- في أدب الإسلام ، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت، الطبعة الأولى 1984م.

8- في الشعر الإسلامي والأموي، د، عبدالقادر القط، مكتبة الشباب، القاهرة 1984م.

9- الوافي في شرح الأربعين النووية، د، مصطفى البنا ، محيي الدين مستو، دار ابن كثير، بيروت لبنان، الطبعة (11) 1999م.